الرف كعنصر تشكيلي وظيفي في المساكن اليمنية التراثية

د. محمد عبدالحميد نعمان
كلية الفنون الجميلة، جامعة الحديدة، اليمن

المقدمة:

لا شك أن اليمن قد شهدت حضارة مجيدة استمرت لحقب مديدة ظلت شواهدها ماثلة للعيان فيما بقي من آثار مادية في العمارة والفنون المختلفة, حيث مثلت العمارة جزءاً هاماً من انجازات الإنسان اليمني خلدها اليمنيون بروائعهم المعمارية. وتعتبر اليمن من أكثر البلدان حفاظا على إرثها الحضاري سواء كان هذا قبل الإسلام أو بعده[1], والحفريات والاكتشافات التي تظهر بين الحين والآخر تؤكد بأن العمارة اليمنية تستمد جذورها من تراث حضاري عمره ثلاثة آلاف عام تقريبا وكما يقول الفنان والمعماري حسن فتحي: كل شعب أنتج معماراً، يطور أشكاله المحببة له، والتي تخص هذا الشعب مثلما تخص لغته، أو ملبسه، أو فنونه الشعبية.[2]

وتتميز العمارة اليمنية بطابع معماري يتنوع حسب اختلاف التضاريس وطبوغرافية الأرض، وبما يتناسب ومواد البناء المتوفرة في المكان ما بين البناء بالحجر والطوب والطين وغيرها، واختلف أسلوب البناء فتنوعت ما بين المباني البرجية والمباني ذات الفناء، وأدى ذلك إلى حدوث تباين في تشكيل الحيزات الداخلية للمساكن، وظهرت بعض عناصر التصميم الداخلي المشتركة في مختلف المساكن. ومن هذه العناصر الرف، وهو بروز من الجدار يستخدم كمكان تخزين او عرض، ويعرف المعجم الرف بأنه: شِبْهُ الطَّاقِ تُجْعَلُ عليه طرائِفُ البيت، يقال: وضع الكتب على الرف [3] والرَّفُّ بالفتح خشب يرفع عن الأَرض إلى جَنْب الجِدارِ يُوقَى به ما يُوضَع عليه، وجمعه رُفُوفٌ و رِفافٌ ومنهم من يجعل الرَّفْرَف جمعاً، واحده رَفْرَفَةٌ وجمع الرفْرفِ رَفارِفُ.

ومن المفترض ان الرف قد ظهر في العمارة منذ وقت مبكر كعنصر وظيفي لحفظ الأدوات واستمر وجوده حتى بعد ظهور وحدات التخزين المنفصلة، كعنصر وظيفي جمالي لعرض القطع

1- عبد الله عبد السلام الحداد, صنعاء تاريخها ومنازلها الأثرية, دار الأفاق العربية, القاهرة، 1999، ص5.

2- حسن فتحي, عمارة الفقراء، مكتبة الأسرة, 2001، القاهرة، ص45.

3-http://www.baheth.info/all.jsp?term=%D8%A7%D9%84%D8%B1%D9%81

الفنية. وظهرت في العمارة الإسلامية رفوف خشبية متقنة الصنع مثل تلك التي في منازل القاهرة القديمة والتي تعود لفترة للحكم العثماني. ونزعم أن الرف في المساكن اليمنية قد اختلف باختلاف المناخ، وأسلوب البناء، وتحاول هذه الدراسة تتبع أنواع الرف في المساكن التراثية ومكان تواجده وخامات بنائه، وأساليب تشكيله. في مدينة صنعاء ومدن تهامة متمثلة في زبيد والحديدة وبيت الفقهية واكواخ الطين والقش.

مشكلة البحث:

تتعرض الكثير من عناصر التصميم الداخلي للاندثار بسبب التوجه إلى أساليب وخامات البناء الحديثة، وأيضا نتيجة الإهمال والتدمير الذي تتعرض له. وعليه فإن مشكلة البحث تكمن في تسليط الضوء على الرف كأحد عناصر العمارة الداخلية الهامة في المسكن اليمنية التراثية.

أهداف البحث:

يمكن تحديد أهداف البحث في النقاط التالية:

1. التركيز على عنصر الرف في التصميم الداخلي من حيث أسلوب المعالجات التشكيلية ومكان تواجده في الواجهات الداخلية للغرف المختلفة للمسكن.
2. توثيق عناصر العمارة الداخلية والاستفادة منها في تصميمات معاصرة

فروض البحث:

1. ادى اختلاف المناخ بين مدينة صنعاء ومدن تهامة إلى اختلاف مكان ومواد بناء الرف.
2. تنوعت اساليب تشكيل الأرفف والمساحة المحيطة بها بتنوع العمارة اليمنية.

منهجية البحث:

منهج الدراسة التحليلية لعناصر العمارة الداخلية والتركيز على القيم الوظيفية والجمالية للرف.

الإطار النظري والتطبيقي للبحث:

اولاً: الرف في مساكن صنعاء:

تختلف مساحة التشكيل الزخرفي في صنعاء بحسب أهمية الغرفة لكنه عموما يكثر في الديوان والمنظر والمفرج، ويعتبر الرف أو "الصفيف" – كما يسمى في صنعاء– أهم عنصر في تشكيل المسطحات الداخلية، وعادة ما تكون في كل أركان الغرفة وفي المساحات الفاصلة بين

الشبابيك والطاقات الغير نافذة، ويتوسط الحوائط الطويلة الخالية من النوافذ، ويكون بأشكال شبة دائرية أو مستطيلة، أو مربعة. والأرفف الركنية ذات الواجهة المنحنية قطرها 30 سم تقريبا، أما المساحات المستطيلة، فلا يزيد طولها عن متر واحد ولا يزيد عرضها عن 30 سم. وجميعها تغطى من الأمام بتشكيلات نحتية مفرغة، وتنحت المساحة أسفل الرف بأشكال مختلفة مثل الأشكال النباتات والطيور وأشكال العقود والأشكال المنحنية، وأحيانا تكون أشكالا هندسية تمتد خارج مساحة الرف، حيث يقوم الفنان بدمج العمل الفني مع بقية الواجهة التي تعتبر خلفية العمل الفني. ويستخدم الرف لوضع التحف وبعض الصور، ويتسم التشكيل النحتي على الأرفف أو ما بينها بالعضوية، وتكثر فيه الخطوط المنحنية وأوراق الأشجار المتقابلة والمتعاكسة، وأشكال الطيور. وهذه التشكيلات الزخرفية قد تترك بيضاء أو تلون بعض المساحات التي تكثر فيها التفاصيل. وتتكامل الأرفف شكلا ولونا وخامة مع القمريات، وتعمل بمجملها على خلق الانسجام والوحدة في العمل الفني وبالتالي إيجاد الراحة البصرية مع الإحساس بالمتعة. صورة رقم (1) على عكس التقنيات الأخرى التي اندثرت مع دخول مواد البناء الجديدة، ازدهر العمل بخامة الجص واستمرت اعمال النحت والزخرفة بالجص في صنعاء لارتباطها بالتباهي وإظهار الثراء.

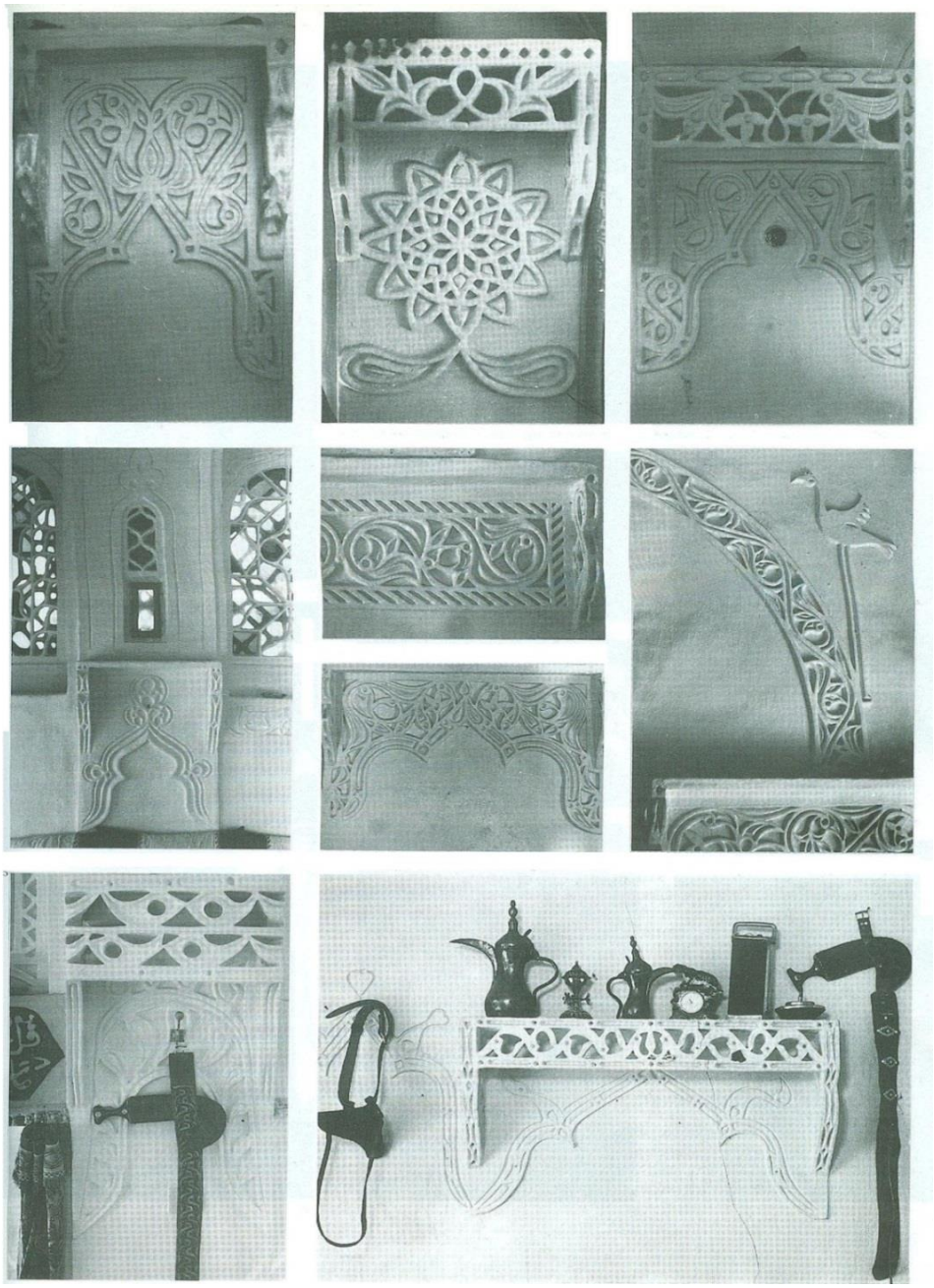

صورة رقم (1) اشكال الرفوف والزخارف الجصية في غرف الاستقبال. مصدر الصورة[4]

4 –Paul Bonnenfant (comp.): Sanaa: architecture domestique et société. Paris: Éditions , 1995

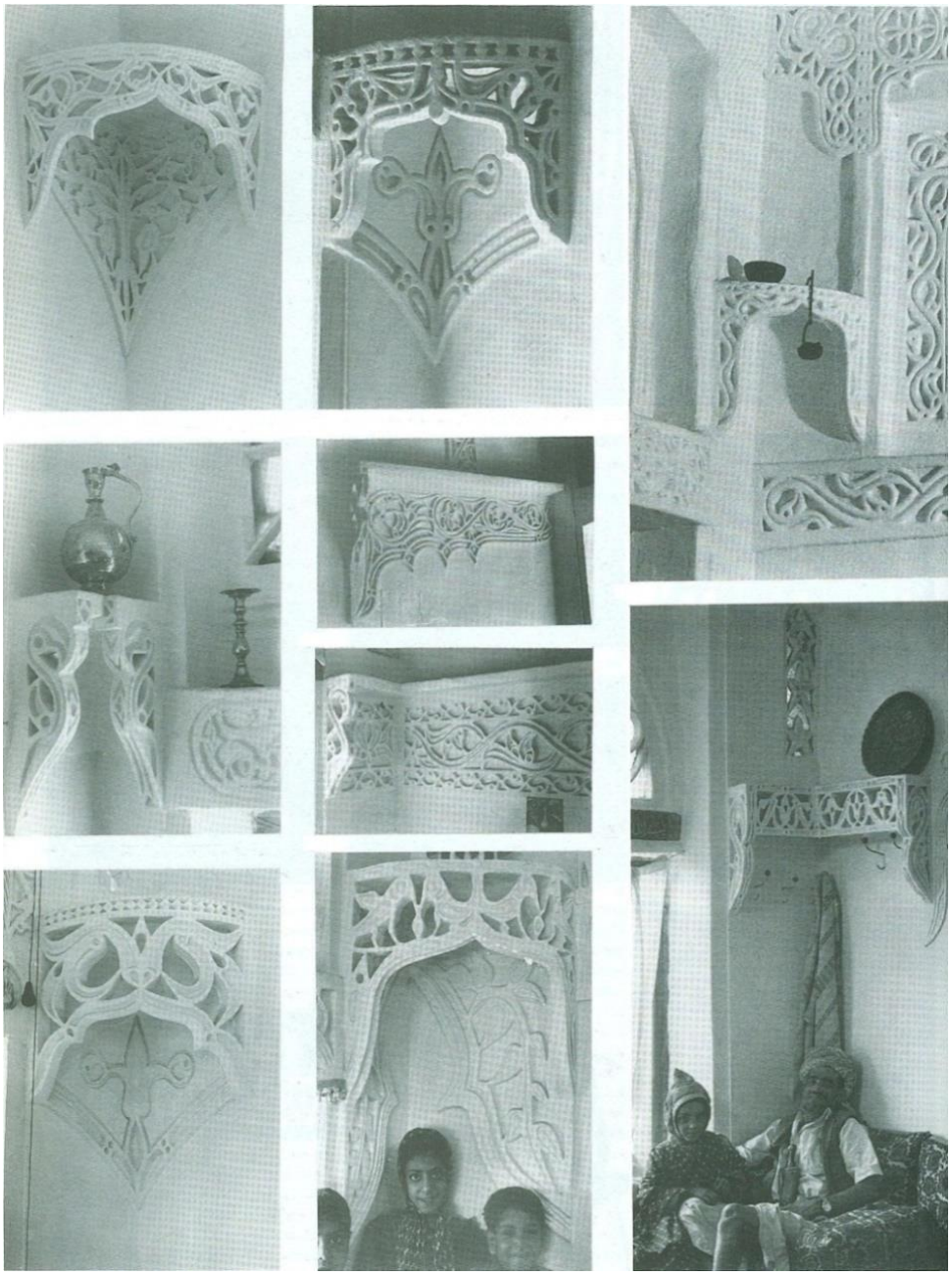

صورة رقم (2) نماذج من الأرفف الركنية في مساكن صنعاء القديمة. مصدر الصورة [5]

ثانيا: الرف في مساكن زبيد:

في زبيد يعتبر الرفَّ عنصرا أساسيا في حائط المربعة أو الليوان الذي يعتبر أهم الغرف في البيت الزبيدي، ويكون الرف في الجدار المسمى الصدر– الجدار الذي يقابل محل الغرفة – ولا يتكرر في جدار آخر من جدران المربعة أو الليوان، ونادراً ما يكون في المبرز أو الخلوة، ولا يمكن أن تخلو مربعة أو ليوان من الرفَّ. ويشيد الرف بالياجور او القولب كما يسمى في زبيد

5– Paul Bonnenfant , ibid.

بحيث يبدأ الأسطى بعمل بروز في الجدار على مراحل متعددة، وبعد الانتهاء من عمل " الطاقات" يبدأ الأسطى بعمل " الرفَّ" و يقوم الأسطى بعمل البروز بالتدريج في خمسة صفوف من الطوب، بحيث يبرز كل صف عن الآخر مقدار خمسة سنتيمترات – بحجم الطوبة– لعمل جلسة الرفَّ. ولكل صف من الصفوف اسم فالأول يسمى (أودان) والثاني (دندان) ثم (أودان) يلية (دندان) واخيراً (أودان) وهي الشرفة الأخيرة، وهذه المسميات يتناقلها أساطية البناء في زبيد وربما كن لها معنى ما، وتصل سماكة الرف إلى 20 سم. صورة رقم(3)

صورة رقم (3) رف في صدر مربعة ومكتوب عليه آية الكرسي وتحيط بها اشرطة زخرفية من أعلى ومن أسفل – تصوير الباحث

وتوضع في هذه الأرفف أدوات خاصة بالعروس وهي جزء من الأدوات التي يقدمها العريس عند الزواج، وهي عبارة عن مجموعة من الأطباق الصينية والكؤوس الزجاجية بألوان زاهية، وترص بشكل مرتب على الأرفف، وغالبا ما تتم زخرفتها وأحياناً بأشكال هندسية مختلفة، وفي كثير من الأحيان تكتب آية الكرسي على امتداد الرفَّ. بعد الانتهاء من بناء الرفَّ يبدأ الأسطى بعمل "القرانيص" وهي عبارة عن تشكيلات أقواس بارزة تعمل بالياجور وعادة ما تكون من أعلى الرفَّ وحتى السقف. صورة رقم (4)

صورة رقم (4) نموذج آخر لرف في صدر مربعة في زبيد – تصوير الباحث

الرف في مساكن بيت الفقيه:

اشتهرت مدينة بيت الفقيه بكونها مركزاً مهماً لتجميع البن قبل تصديره لفترة طويله، وهذه المساكن بدأت هويتها تمحى بسبب الترميم بالخامات الحديثة [6]. وتظهر الزخرفة في الأجزاء الداخلية وعلى واجهات المنازل التي قد تكون مكسوة بالكامل بالنورة، أو تترك قوالب الطوب مكشوفة، قد تغطى بطبقة رقيقة من الجبس. أما في الأجزاء الداخلية للغرف فيظهر نحت جصى شامل لمعظم مسطح الجدار مع عدد لا بأس به من الأرفف والطاقات التي تتعاقب مع كل فرصة يمكن تصورها لتطبيق الزخارف، وعلى غير المعتاد في مختلف أرجاء تهامة نجد في مساكن مدينة بيت الفقيه اثنين من الرفوف أحدهما فوق الاخر ويفصل بينهما 50 سم تقريبا وعادتا ما تكون الغرفة مرتفعة بحيث يسمح الارتفاع بوجود الرفين والملاحظ من خلال الرفوف التي شاهدها الباحث أن الرف الأعلى يزين بالآيات القرآنية والرف الأسفل عليه زخارف هندسية أو نباتية ويكون الرف الأعلى في الواجهات الجانبية القصيرة مقسما الى ثلاثة أقسام متزنة والجزء الأوسط منه أعلى من بقية الأجزاء. والهدف من ذلك كسر الرتابة والملل الناتج من تكرار الخطوط المستقيمة وإضفاء الحركة على الواجهة. وتوضع على هذه الأرفف الكماليات الخاصة

6 –Suzan at max Hirsch, Larchitecture au Yemen Dunord, Edisud, 1983, p279.

بالزينة مثل الأطباق المطلية بالمنيا والصور الهندية. وتتوزع الطاقات على الجدار بشكل متناظر، وتتنوع ما بين المفتوحة والتي تكون بشكل عقد والمقفلة بدرفة خشبية نحتت عليها زخارف غاية في الاتقان. وتعتبر الخزانات الجدارية من الأثاث المبني، وتظهر البساطة في الفضاء الداخلي وتحقق قدرا من الاتساع، ومجالا داخليا لجلوس الحضور، ومتنفسا للحركة دون اعاقة لوجود كتل من الأثاث. والصورة رقم (5) لرف لمسكن في بيت الفقية.

صورة رقم (5) الرف والكوات المحيطة به في الواجهات الداخلية لمساكن بيت الفقيه – تصوير الباحث

ثانيا: الرف في مساكن المخا:

تتكون مساكن المخا من طابقين إلى أربعة طوابق وواجهاتها الأمامية تزين بصورة متقنة مع أبواب خشبية مزخرفة ومشربيات بارزة[7]، ومعظم البيوت لها أكثر من مدخل إلى الطابق الأرضي والذي صمم ليسمح بتنوع في المساحات لتسهيل النشاط التجاري، ويستخدم السكان

7-Nancy Um, The Red Sea Port of Mocha, Yemen, during the First Half of the Eighteenth Century, Journal of the Society of Architectural Historians, Vol. 62, No. 2 (Jun., 2003), p183

الطوابق العليا متضمنة السطح لطهي الطعام والأكل والنوم. وزينت الواجهات الداخلية بالكثير من الطاقات التي تتنوع مساحتها، ويعتبر الرف عنصرا هاما نجده في كل بيت من بيوت المخا، ويكون مدمجا في الجدار لعرض الأشياء الجميلة، وعليه توضع الخزف والكتب والتحف وهي نوع من التقاليد التي تدل على الرفاهية، وأحيانا يكون أعلى الرف فتحات جصية مشبكة تسمى منور وتعمل لغرض التهوية. ويبنى الرف بالطوب ويكسى بالجص والنورة البيضاء كما في معظم مناطق تهامة، غير أنه يكون ممتدا على كل الجدران الداخلية للغرفة بما فيها جدار المدخل، صورة رقم (6) و(7).

صورة رقم (6) لغرفة في الطابق الاول لبيت في المخا وفية كوات مفتوحة وخزنة مغلقة في الوسط وتسمى في تهامة خزرطان ويعلو الكوات رف يمتد على كافة جدران الغرفة– تصوير للباحث

صورة رقم (7) الكوات الصغيرة والرف والفتحات الثلاث اعلى النوافذ. سمة مميزة لعمارة المخا. تصوير الباحث

ثالثا: الرف في مساكن الحديدة:

مدينة الحديدة هي عاصمة المحافظة، وقد حولها الأتراك في فترة وجودهم الثاني إلى ميناء رئيسي للبلاد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولذلك كانت عرضة للتأثيرات العثمانية في مجال البناء والعمارة، ونتج عن ذلك ازدهار نوع من الفن المعماري المستوحى من العثمانيين في قلب المدينة القديمة، والسمة الغالبة لهذه المساكن أنها تتكون من طابقين إلى أربعة طوابق مزودة بسلم داخلي. يستعمل الطابق الأرضي بوجه عام كمخازن أو متاجر ويكون له مدخل خاص ولا يعد هذا الطابق ضمن الحيز السكنى أما الطابق الأعلى فيحتوي على غرفة الجلوس الرئيسة ويعرف محلياً بالمجلس أو الديوان وغالباً ما يكون مزوداً بروشان" فضلاً عن غرفة أو أكثر للنوم والجلوس. ويشتمل الطابق الثاني على غرف خاصة وفناء مغطى تغطية جزئية يسمى (خارجة)[8]، والخارجة هي المساحة المفتوحة إلى السماء في الأدوار العليا في المنزل وتحيط بها من أكثر من ناحية جدران ذات ثقوب صغيرة، تسمح بتخلخل الهواء ولا تسمح بالرؤية. وتستخدم لكثير من الأنشطة مثل النوم في ليالي الصيف الحارة، وتتميز هذه المنازل بالنماذج الزخرفية المتفردة في الرواشن الكبيرة غنية بتشكيلات النحت البارز والنحت المجسم في قاعدة المشربيات بأشكال نباتية مجردة بدرجة عالية من الإتقان ومن الداخل تكثر فيها الكوات والتي تغطي معظم

8-Varanda, Fernando, op.cit, p101

المساحة الداخلية للغرفة ويعلوها رف بارز والنماذج الذي شاهدها الباحث لم يكن فيها الكثير من التشكيل، ويوجد الرف في أكثر من غرفة ويمتد على كافة الجدران التي تخلو من النوافذ، وعلى غير السائد توجد كوات أعلى الرف تستخدم للتخزين . صورة رقم (8)

صورة رقم (8) رف في واجهة غرفة في البيوت القديمة من مدينة الحديدة ويوجد صفين من الكوات اسفل الرف وصف اعلى الرف. تصوير فاتن حيدر

رابعا: الرف في مساكن اللحية:

اللحية مدينة ساحلية كانت في وقت من الأوقات أحد الموانئ لتصدير البن ومركزا لصيد اللؤلؤ، وتوجد في المدينة منازل كبيرة تتميز واجهاتها الداخلية بالأعمال الجصية المكثفة، وتكثر فيها الزخارف النباتية والهندسية المتقنة، كما تنتشر فيها الكثير من الكوات التي تكون مفتوحة أحيانا ومغطاة بواجهات منحوتة بدرجة عالية من الاتقان في احيانا اخرى صورة رقم (9).

وقد بدا لنا من خلال المعاينة للعديد من المنازل التي قمنا بزيارتها صغر مساحة الرف في مساكن اللحية، وذلك بسبب كثرة الكوات المذكورة سابقا والهدف من هذه الكوات الاقتصاد في كمية المواد الإنشائية، وفي نفس الوقت تعطي قوة تعبيرية ناجمة من كسر رتابة سطوح الجدران

بالإضافة إلى القيمة الوظيفة التي تقوم بها كمكان لحفظ مختلف حاجيات الفعاليات التي تجري في الغرفة [9].

وبذلك شغلت هذه الطاقات معظم المساحة وبقيت مساحة صغيرة متقطعة للرف، وهذا يفسر صغر مساحة الرف في اللحية مقارنة ببقية مدن تهامة. ووجدت بعض الرفوف المصنوعة من الخشب وتكون أعلى النوافذ وتمتد في كل أنحاء الغرفة، صورة رقم (10)

صورة رقم (9) الواجهة داخلية لغرفة في الحية حيث تغطي الزخارف الجصية معظم مساحة الجدار. تصوير الباحث

9- خالد السلطاني، حديث في العمارة، سلسلة الموسوعة الصغيرة، عدد 156، دائرة الشؤون الثقافية والنشر، بغداد،1985 صـ 174/173.

صورة رقم (10) رف خشبي لغرفة في الدور الثاني لمنزل في مدينة اللحية . تصوير الباحث

خامسا: الرف في أكواخ تهامة:

يقوم البناء في ريف تهامة على أكواخ من القش والطين، وفي هذه الأكواخ نلاحظ تغيرا في شكل الرف، فالرف هنا يتخذ شكلا مختلفا فلم يعد في خط مستقيم كما هو سائد في أنواع المساكن السابقة بل يتحول ليشمل كافة مساحة العشة الداخلية، حيث تعلق الأطباق الصينية المزخرفة على مشجب خشبي مثبت بالجدار ورسم حوله شكل زهرة صورة رقم .(11)ويطلق على هذا النوع الأطباق اسم "تشْرِيْعَة" وهي جزء من جهاز العروس، حيث تسمى أحد ايام العرس والذي يستمر لمدة أسبوع باسم يوم الشرع إذ تقوم صديقات العروسة بإحضار جزء من جهاز العروسة من بيت والدها مثل الاطباق الصينية والمرايا وتزين بها غرفة الزوجية، ويتم وضع الأطباق الصينية على الرف في صف من المرايا أسفل الرف.[10] وتوجد التشريعة في معظم مدن تهامة، ونجد تشابها في هذه العادات بين تهامة ومنطقة النوبة في مصر والسودان. [11]

10- مقابلة مع حسن عبدالله دجرة من ابناء مديرية الدريهمي شرق مدينة الحديدة، 6/30/ 2021.

11 – Varanda, Fernando, The House in Tradition and Change in the Built Space of Yemen, p 95

صورة رقم (12). وفي بعض العشش من ريف بيت الفقيه قد نجد رفا دائريا بارتفاع مترين، وربما كان ذلك لتأثرها الكبير بعمارة الطوب لكنها ليست بدرجة الاتقان التي لوحظت في وادي مور.

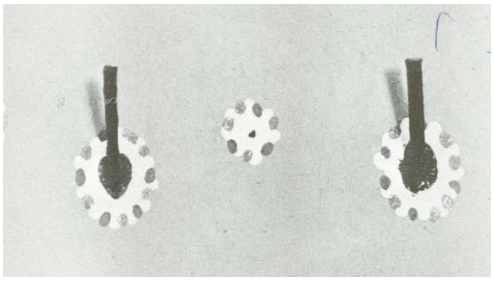

صورة رقم (11)مشاجب خشبية تثبت بالجدار ويرسم حولها شكل وردة وتعلق عليها الأطباق
(3)

والصورة رقم (12) نموذج من الرفَّوف والتشكيلات الزخرفية. مصدر الصورة (1)

الخلاصة والتوصيات:

تعتبر الأرفف نوعا من الأثاث المبني، وعنصرا جماليا نجده بسيطا في بيوت الفقراء ويتسم بثراء التشكيل في بيوت الأغنياء وتختلف الرفوف في صنعاء عن تهامة ففي صنعاء ومعظم المناطق الجبلية مساحاتها صغيرة ومفصولة عن بعضها البعض على عكس تهامة التي يشمل الرف فيها كل الواجهة كما في زبيد، وأحيانا يمتد في كل واجهات الغرفة كما هو الحال في المخا. أما في بيت الفقيه فقد بدا بناء الرف على غير العادة حيث يبنى أكثر من رف في الجهة الواحدة ويكون أحدهما فوق الاخر، وفي أكواخ القش والطين تحول شكل الرف ليشمل كل مسطح الجدار، وأحيانا يبنى من أصل الجدر بالطوب المحروق ثم يكسى بعد ذلك بالجص. وفي صنعاء يعتبر من أعمال التشطيبات الداخلية، ويعمل بالجص بعد انتهاء البناء، وهناك جانب آخر مهم في صنعاء أن مستوى الرف قريب من مستوى وقوف الشخص العادي نظرا لأن الأثاث في صنعاء يكون على الأرض مما يوجد فضاء مناسبا للحركة. لكن في تهامة ونظرا لأن الجلوس لا يكون على الأرض وإنما على الأسرة المرتفعة فإن مستوى الرف يكون مرتفعا في مستوى الواقف على الأسرة، ويصل ارتفاع الجدار إلى خمسة أمتار في تهامة. ومن الضروري رصد وتوثيق ما تبقى من عناصر التصميم الداخلي في مختلف أنواع العمارة اليمنية، وفي ما يلي جدول لتوضيح الفرق بين المساكن في فيما يتصل بالرف والخامة المصنوع منها وطريقة البناء وأسلوب التشكيل.

المدينة اوجه المقارنة	صنعاء	زبيد	بيت الفقية	اللحية	المخا	الحديدة	أكواخ الطين والقش
مواضع بناء الرف	في الديوان والمفرج	في الليوان أو المربعة	في الليوان أو المربعة	نادر الوجود	في أكثر من غرفة	في أكثر من غرفة	في كل عشة
في اي جدار في الغرفة	في أركان الغرف وفي المساحات الفاصلة بين الشبابيك	في صدر المربعة او الليوان فقط	في الثلاثة الجدران ماعدا جدار الباب	في بعض الواجهات	في كل الواجهات الداخلية	في الجدران الخالية من النوافذ	على كل الجزء الأسطواني من العشة
الخامة المستخدمة في البناء	الجص فقط	يبنى بالطوب ثم يكسى بالجص	يبنى بالطوب ثم يكسى بالجص	الخشب على زوايا من الحديد	يبنى بالطوب ثم يكسى بالجص	يبنى بالطوب ثم يكسى بالجص	أعواد الخشب والطين
عناصر التشكيل الزخرفي	أشكال نباتية وحيوانية	أشكال هندسية وكتابات	أشكال هندسية وكتابات	أشكال هندسية	خطوط مستقيمة	خطوط مستقيمة	الألوان وأطباق الصيني

جدول يوضح الفروقات المختلفة بين الأرفف في بعض المدن اليمنية – الباحث

المراجع:

1. عبد الله عبد السلام الحداد, صنعاء تاريخها ومنازلها الأثرية, دار الأفاق العربية, القاهرة، 1999.
2. حسن فتحي, عمارة الفقراء، مكتبة الأسرة, 2001، القاهرة.
3. خالد السلطاني، حديث في العمارة، سلسلة الموسوعة الصغيرة، عدد 156، دائرة الشؤون الثقافية والنشر، بغداد،1985.
4. Paul Bonnenfant (comp.): Sanaa: architecture domestique et société. Paris: Éditions , 1995
5. Nancy Um, The Red Sea Port of Mocha, Yemen, during the First Half of the Eighteenth Century, Journal of the Society of Architectural Historians, Vol. 62, No. 2 (Jun., 2003)
6. Varanda, Fernando, The House in Tradition and Change in the Built Space of Yemen.
7. Suzan at max Hirsch, Larchitecture au Yemen Dunord, Edisud, 1983.

مواقع الانترنت:

8. http://www.baheth.info/all.jsp?term=%D8%A7%D9%84%D8%B1%D9%81